المحاضرة الثانية: بناء الموشح

بناء الموشح (مكونات الموشح)

يتكون الموشح من عدة أقسام وهي وحدات فنية مُحكَمة ينهجها الوَشّاح لتأدية إيقاعات نغمية منسجمة. ولم يشر أحد من الوشاحين الأندلسيين الأوائل إلى تسمية أقسام موشحاتهم. فظلت ظاهرة عامة ينسج على منوالها اللاحقون حتى انتشرت الموشحات

في الأندلس، فتناولها بعض المؤرخين المتأخرين وحاولوا وفق استنتاجاتهم الاصطلاح على أجزائها وأقسامها دون الاتفاق على تسمية موَحدة. وفي حديث ابن بسّام عن الموشحات الأندلسية أطلق اسم المركز على القفل الأخير من الموشحة في حين يسمّيه ابن سَناء المُلك الخرج، يُعد ابن سَناء المُلك أول من حدّد هذه المصطلحات، فيما وصل إلينا من مصادر، إذ قال: "ولم أر أحدا صنّف في أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يُحتذى، وسبيلا يُقتفى"

أشار ابن سَناء المُلك إلى أنه أول من صنّف أصول الموشح، ويبقى الأمر مبهماً حول المصدر الذي استقى منه هذه المصطلحات، إذ معظم الكتب الأندلسية التي تناولت الموشحات والتي سبقت عصر ابن سَناء المُلك لم تصل إلينا.

وقد اتفق الباحثون المحدثون استنادا إلى ابن سَناء المُلك في كتابه "دار الطراز" على مصطلحات تكاد تكون متداولة عند جميعهم. ولتوضيح أقسام الموشح وأجزائه، نقدّم نموذجا نستدل به على بنائه. قال الوزير أبو بكر بن زهر الحفيد الأندلسي:

حَيِّ الوجوه الملاح أوحَيِّ نُجْلَ العيونِ

هذا الموشح من أشهر الموشحات الأندلسية ومن أبسط النماذج التي أكثر منها الوشاحون الأندلسيون وهو موشح تام يتألف من ستة أقفال وخمسة أبيات وينقسم كالتالي

:

أ - المطلع

يتكون الموشح من عدة أقسام مختلفة؛ منها المطلع، وهو المجموعة الأولى من أقسام الموشح في حين أن مطلع القصيدة هو البيت الأول منها. فإذا ابتدئ الموشح بالمطلع سُمّي تاما إلا أنه لا يشترط أن يكون لكل موشح مطلع، فالموشح يخلو أحيانا من المطلع ويسمى حينئذ أقرعَ. ويسمى المطلع مذهبا أيضا وهو في الموشحة التي أوردناه

حَيِّ الوجوه الملاحَا وحَيِّ نجلَ العيو نِ

وهو يتركب من شطرين مختلفي القافية (أ ب)، وقد تتفق قافية شطري المطلع في موشحات أخرى (أ أ) كما هو الحال في موشحة ابن بقّي الطليطلي (ت 545 هـ - 1149 م) التي

مطلعها

أجرت لنا من ديارِ الخلّ ريحُ الصّبا عبرات ذل

يتألف المطلع من جزأين على الأقل وقد يتركب من ثلاثة أجزاء فأكثر. جاء في "دار الطراز": "وأقلّ ما يتركب القفل من جزأين فصاعدا إلى ثمانية أجزاء"ويعني القفل المطلع

أيضا. ومثال المركب من ثلاثة أجزاء، مطلع موشحة لابن زهر الحفيد:

حلّت يد الأمطار أزرّة النُوّار فيأخذني

ومثال المركب من أربعة أجزاء، مطلع للأعمى التطيلي

أدِرْ لنـــــا أكـــوابْ يُنْسَى بها الوَجْدُ

واستصحبِ الجُلاّسْ كما قَضَى العهْدُ

أما الموشحات التي أكثر منها الوشاحون فهي التي يتركب مطلعها من شطرين على الأقل وأربعة أشطر على الأكثر.

والموشح التام لا يتصدر إلا بمطلع واحد، هذا إذا كان تاما، أما

الأقرع فلا يتقدمه المطلع، ومثال الأقرع موشحة لابن زهر الحفيد هذا أولها:

يا من تعاطينا الكؤوس على اذكاره

وقضى على قلبي فلم يأخذ بثاره

وأقرّ أحكام القصاص على اختياره

إن أقلّ حسبي، فالجورُ تأباه الطباع

لم ينظم الأندلسيون الموشح الأقرع إلا نادرا، لذا جاءت أكثر الموشحات الأندلسية تامّة، أما المشارقة فلم ينسجوا في الأقرع إلا ما عارضوا به الوشاحين الأندلسيين.

ب - البيت

يختلف البيت في الموشحة عن البيت في القصيدة، ففي القصيدة يتألف البيت من شطرين يصطلح عليهما بالصدر والعجز، أما في الموشحة فالبيت يتكون من عدة أجزاء. يكون البيت بعد المطلع إذا كان الموشح تاما ويتصدر الموشح إذا كان هذا الأخير أقرعَ. وتكون قوافيه مختلفة عن قوافي الأقفال. تتوحد القوافي في أجزائه ويسمى مفردا، وقد تختلف فيما بينها ويسمى البيت حينئذ مركبا. وينبغي أن تكون قوافي كل بيت مختلفة عن قوافي البيت التالي. والبيت في الموشحة التي أوردناها هو:

هل في الهوى من جناح

أو في ندي مٍ وراح

رام النَّصيحُ صلاحي

هذا البيت مفرد ويتكون من ثلاثة أجزاء رسمها (ج ج ج)،

ويرمز للبيت الذي يليه بحروف (د د د) وهكذا إلى نهاية الأبيات ويأتي بعد كل بيت قفل يتفق مع المطلع في وزنه وقوافيه يفصله عن البيت التالي. وقد يتكرر البيت في الموشحة خمس

مرات لكن هذا ليس شرطا فقد يبلغ عدد الأبيات في الموشحات عشرة أحيانا. أما الموشح الأكثر انتشارا عند الأندلسيين فهو الذي يتكون من خمسة إلى سبعة أبيات يتألف البيت من ثلاثة أجزاء على الأقل وخمسة أجزاء على الأكثر، مفردة أو مركّبة من فقرتين فأكثر. وقد يتركب

البيت من أربع فقر على الأكثر وهذا نادر جدا في الموشحات الأندلسية. والأبيات الأكثر انتشارا في الموشحات هي التي تتكون من ثلاثة أجزاء مفردة أو مركّبة من فقرتين. وفي هذا المجال يقول ابن سَناء المُلك: "والجزء من البيت قد يكون مفردا، وقد يكون مركّبا، والمركّب لا يتركب إلا من فقرتين أو من ثلاث فقر، وقد يتركب في الأقل من أربع فقر"

يظهر أن ابن سَناء أراد أن يقول "على الأكثر من أربع فقر". ومثال البيت المركّب

من فقرتين وثلاثة أجزاء قول الأعمى التطيلي من موشحة له:

سلْ بنات قلبي هل تَعزّى وتقرْ

لا أقولُ مسبي ما بكائي سِرْ

قدْ إليك حَسبي ليس ينفعُ الحذرْ

يذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن البيت في الموشحة يتكون من الدور مع القفل الذي يليه، والدور عندهم هو عدد الأجزاء الذي يتكون منها البيت في الموشحة. قال مصطفى عوض الكريم في توضيح الدور: "ويعقب المطلع في الموشح التام أقسمة تختلف عن قوافي المطلع والقفلة والخرجة"، ويعني بالأقسمة أجزاء البيت، ثم يضيف: "أما في الموشح فالبيت هو الدور مع القفل الذي يليه.

ج - القفل

وهو مجموعة الأجزاء التي تتكرر في الموشحة، ويتفق القفل مع المطلع في الوزن والعدد والقافية. وتتكون الموشحة من ستة أقفال بما فيها المطلع في التام وخمسة أقفال في الأقرع. وهذا ليس شرطا في الموشحات الأندلسية بل منها ما يتجاوز الستة أقفال. والقفل الأول من الموشحة التي مثلنا بها هو

وكيف أرجو صلاحًا بين الهوى والمجونِ

يتفق هذا القفل في شكله ونظامه مع المطلع الذي تصّدر

د - الجزء

وهو الجزء الواحد من المطلع أو البيت أو القفل أو الخرجة فالموشح الذي ذكرناه يتكون مطلعه وكذلك اقفاله وخرجته من جزأين مختلفي القافية. وقد يكون الجزءان على قافية واحدة، وأكثر عددها أربعة أجزاء. وتتكون أبيات الموشحة التي أوردناها من ثلاثة أجزاء مفردة متفقة القافية، وقد تكون أجزاء الأبيات مركّبة من فقرتين فأكثر في موشحات أخرى.

تسمّى أجزاء الأقفال عند بعض الباحثين المحدثين أغصانا ويسمّون الجزء الواحد من البيت سِمطا(43). لقد وردت لفظة غصن في "الذخيرة" كما وردت لفظة سِمط وغصن في

المقدمة" أيضا. وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون: "استحدث المتأخرون منهم فنا سمّوه بالموشح، ينظِمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة وأوزانها متتاليا).ويسمّون المتعدد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان فيما بعد إلى آخر القطعة" نرى أن ابن خلدون لم يفرّق بين لفظتي سمط وغصن

والتسميط عند علماء البديع هو أن يجزأ البيت إلى أربعة أقسام، الثلاثة الأولى منها على قافية واحدة مخالفة للقافية الأصلية، وجاء في "العمدة" أن أبا القاسم الزجّاجي قال: "إنما سُمّي بهذا الاسم (السمط) تشبيهاً بسمط اللؤلؤ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرق حبّه، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرق القوافي متعقبا بقافية تضمه إلى البيت الأول الذي بنيت عليه في القصيدة صار كأنه سمط مؤلف من أشياء مفترقة" فالسمط إذن، هو مجموعة الأجزاء التي تتألف منها المقطوعة الواحدة بما فيها عمود الشعر من المسمطة. وبما أن أقسمة المسمطة لا تأتي إلا مفردة فمن غير شك أن ابن خلدون يكون قد أطلق لفظة "أسماط" على مجموعة الأجزاء المفردة من الموشحة قفلا كانت أو بيتا وليس أقسمة البيت فقط كما ذهب هؤلاء المحدثون.

هـ - الخرجة

الخرجة هي القفل الأخير من الموشحة، وهي ركن أساسي لا يمكن الاستغناء عنه بعكس المطلع الذي قد تبتدئ به الموشحة وقد تخلو منه. والخرجة في الموشح الذي أوردناه هي

مَرّت عيناك المِلاحَا سَحراً فما ودعوني

وقد تختلف الخرجة عن بقية الأقفال من حيث اللغة لأنها القفل الوحيد من الموشحة الذي يجوز فيه اللحن. قال ابن سَناء والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف، قزمانية من

قبل اللحن، حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة"

والمعنى أن تكون الخرجة ماجنة وهزلية بلغة العامة واللصوص الذين يسمّيهم الداصّة. لكن لا يشترط أن تكون كل الخرجات ماجنة أو عامية بل هناك موشحات كثيرة جاءت خرجاتها معرّبة وخالية من المجون وقد استدركها ابن سَناء فذكر مواضعها، إلا أنه استثنى بعض الخرجات التي لا تكتب بالعامية وقال: "فإن كانت معرّبة الألفاظ منسوجة على منوال ما

تقدمها من الأبيات والأقفال، خرج الموشح من أن يكون موشّحا، اللهم إلا إن كان موشح مدح، وذكر الممدوح في الخرجة، فإنه يَحسُن أن تكون الخرجة معرّبة كقول ابن بقّي

إنما يحيى سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الأنام

وقد تكون الخرجة معرّبة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزِلة جداً" وقد يجعل الوَشّاح مطلع قصيدة مشهورة أو بيت أعجب به خرجةً لموشحته كما فعل ابن بقّي الطليطلي في موشحته عندما استعار بيتا للشاعر العبّاسي عبد الله بن المعتز

علّموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتيّ الملاحَا

.وقد يعجز الوشّاح عن نظْم الخرجة في موشحته فيستعير خرجة مشهورة لوَشّاح آخر

ويجوز أن تكون الخرجة في الموشحة عجمية اللغة، ويشترط ابن سَناء المُلك في الخرجة العجمية أن يكون اللفظ فيها: "سفسافا نفطيا ورماديا زطيا" ويقصد بذلك استخراجها من الألفاظ المحرقة كما يحرق النفط، وينبغي أيضا أن تكون ألفاظها جيدة كألفاظ الشاعر الأندلسي الشهير يوسف بن هارون الرمادي، ولا يشترط أن تكون ألفاظ الخرجة كلها عجمية بل تكون أيضا مزيجا من ألفاظ عربية وعجمية أو عامية وعجمية. كما أنه ينبغي على العجمية أو العامية أن تستخدم في الخرجة فقط فإذا تسربت هذه الألفاظ إلى الأجزاء الأخرى من الموشح، سُمّي موشّحا مُزنّما.

ذهب ابن سَناء المُلك أيضا إلى أن الخرجة: "هي إبزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة، وقولي

السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها، ويعملها من ينظِم الموشح في الأول، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية".